الرقابة والضبط في أيالة الجزائر العثمانية

د/ نبيلة بن يوسف /جامعة مولود معمري / تيزي وزو

بعد انهيار الموحدين ظهرت إمارات في الشمال الافريقي؛ بنو مرين في المغرب والحفصين في تونس والزيانيين في الجزائر، وتشتت القوى عرض منطقة المغرب العربي في بداية القرن السادس عشر للميلاد إلى اعتداءات صليبية استعمارية، وكان لاسبانيا اليد الطولي في اشعال فتيلها لاسيما بعد سقوط الاندلس عام 1492م وفرار أهلها إلى المغرب العربي، فتمت ملاحقتهم من طرف الإسبان، وكرّد فعل ايجابي ظهرت حركة جهاد بحرية جريئة تصدت لغارات القراصنة الأوروبيين على مسلمي الاندلس الفارين إلى السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، تحديدا بلاد المغرب العربي؛ طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى. من أشهر مجاهدي الحركة البحرية الإخوة بربروسا "عروج" و "خير الدين" اللذان ذاع صيتهما في البحر المتوسط ما دفع بالجزائر الاستنجاد بهما لما اجتاح الاسبان جهتها الغربية، ولم يتردد الإخوة في تقديم المساعدة والعون، وفي هذه الفترة عرض على الجزائر أن تكون إيالة عثمانية فقبل أعيانها لتزيد قوتهم في ظل الإمبراطورية العثمانية الإسلامية.

بعد انضمام الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية خليفة المسلمين الجديدة بعد سقوط الخلافة العباسية على يد هولاكو، وما آلت إليه الأمة العربية والإسلامية من انقسامات وتشتت، كان التشابه العقائدي صاحب الأثر الكبير في تقبُّل فكرة الانضمام التي دخلت حيز التطبيق عام 1518م، وأصبح لزاما أن تفرض رقابتها وتضبط أمور التنظيمان السياسي والإداري في إيالتها الجديدة الجزائر، وعليه تكون اشكالية البحث كالآتي:

ما هي صيغ الرقابة والضبط التي استعملتها الدولة العليّة في إيالة الجزائر طيلة الثلاث قرون واثنا عشر عاما (1518 إلى 1830 م)، وإلى أي مدى كانت صيغ ناجعة لفرض السيطرة على الإيالة ؟

الفرضيات:

ـ كلما زادت قوة السلطة العثمانية عسكريا وماليا، كلما زادت قدرتها على التحكم ومراقبة الوضع في الجزائر.

ـ الرقابة والضبط في الجزائر كانتا في صالح الأمن والنظام المحلّي، وفي صالح استمرار الارتباط بالإمبراطورية العثمانية.

ونتبع في تحليل الدراسة المنهج التاريخي

المحاور التي تعالج الموضوع قيد الدراسة ستكون على النحو الآتي:

ـ ظروف التدخل العثماني وانضمام الجزائر إلى السلطنة العثمانية

ـ الرقابة والضبط في المجال السياسي

ـ الرقابة والضبط في المجال الإداري

ـ الرقابة في المجال المالي

ـ الرقابة العسكرية.

ـ الخاتمة.

I . ظروف التدخل العثماني وانضمام الجزائر إلى السلطنة العثمانية:

لقد بزغ صيت الإخوة بارباروس كما يبزغ الشهاب في الليلة الظلماء فقد مدا يد العون للمسلمين المطرودين من الأندلس والفارين إلى الشمال الإفريقي لاسيما إلى تونس والجزائر، ومدا يد العون لأهالي الشمال الإفريقي لصد سطوة القراصنة في البحر الأبيض المتوسط، حتى لقب عروج وخير الدين بسيفان من سيوف الإسلام لشهامتهما وحرصهما على دحر الأعداء الكفار. لم تكن الجزائر تتعرض للاعتداءات القوّية لولا التشتت الذي أصاب دولة بني زيان لما صارات إمارات مفككة متصارعة[1].

كان عروج مقتنعا بوجوب تأسيس دولة في الشمال الإفريقي لصد المسيح لكن ليست تونس الحفصية التي على رأسها ملكا هي المكان الذي يتخذه حصنا، رغم أن ملكها وافق عام 1513م على اعطائهما قلعة حلق الوادى التونسية مقابلها غنائم، لكن الجزائر هي المطلوبة عند الأخوين لأنها في وقت تحتاج إلى المساعدة ولا تعرف على رأسها سلالة تحكم.

ومن أسباب سهولة غزوها من طرف الاسبان نذكر ؛

أ ـ ضعف دولة بني زيان في الجزائر التي انقسمت على نفسها وتشتت إلى إمارات عديدة بعد التكالب على السلطة، وحب الملك والنفوذ.

ب ـ قوة الجوسسة و وجود النفوس الميتة والضعيفة القابلة للذل والمهانة ونقل الأخبار ومساعدة الأعداء، في انتظار مقابل مادي أم وعود قد لا تتحقق أبدا لخائن أرضه وأهله. فاحتل المرسى الكبير بمنطقة وهران غرب الجزائر(أين كان يستقر عدد كبير من مسلمي الأندلس المطرودين) من طرف الإسبان الحاقدين والناقمين بعد حملة عسكرية سنة 1505م، بقيادة "غونزالو سيسنيروز"، كاردينال الملوك الكاثوليك أعدها الملك "فرديناند" بتاريخ 16 ماي 1509، وارتكب الجنود فيها مجازر رهيبة [2]، ذبح أربعة آلاف مسلم وسيق كثير من المسلمين كعبيد إلى اسبانيا.

كان نجم الإخوة باربروس ساطعا يخترق الآفاق وانتصاراتهم المتتالية على القراصنة قطاع الطرق البحرية لاسيما الإسبان في حوض البحر الأبيض المتوسط[3]، وقد حاولوا تحرير مدينة بجاية من المحتل لما استنجد بهم عقال المدينة، وباءت محاولتهم الأولى بالفشل لأسباب هي نفسها الأسباب التي سهلت دخول الإسبان؛ أي تآمر ذوي النفوس الضعيفة مع الأعداء لأجل أهداف شخصية نحصرها في السلطة، وهذه المرة التآمر كان مع بني عباس.

لم ييأس الإخوة باربروس وحوّلا مركزهما الواقع في حلق الوادي بتونس إلى مدينة جيجل الساحلية في شرق الجزائر بعد أن شنوا حملة عسكرية على الإيطاليين الجينوة اللذين احتلوها، وبويع عروج أميرا عليها من طرف السكان، وكانت فكرة التحرير لها بعد تكتيكي ـ حربي، فجيجل الأقرب من مدينة بجاية عوض حلق الوادى التونسية يمكن لهم محاصرة الاسبان من خلالها برا وبحرا.

وقبل الحملة لتخليص بجاية من الاحتلال انتقم "خير الدين باربروس" شر انتقام من الاسبان لما هجم على جزر البليار وأسر الآلاف منهم.

نضم عروج حملة جديدة على الاسبان لتحرير مدينة بجاية عام 1514م وحاصرهم برا، وكررها بعد عام لكن نفاذ الذخيرة وعدم قبول الأمير الحفصي بتونس تزويده بها(للخوف من غضب الاسبان عليه)، لكن هدية السلطان العثماني جاءت في وقتها مقابل هدية ثمينة أرسلها عروج للسلطان بعد نجاحه في مدينة جيجل، ولكن عوض التوّجه إلى بجاية كانت الوجهة إلى مدينة الجزائر عام 1516م التي اشتكى أهلها للأخوين بارباروس استبداد وقهر الاسبان المتمركزين في قلعة البنيون لهم، كانوا ناقمين على الأوضاع وعلى الذل والهوان من قادة قلعة البنيون أو ما يمسى في الجزائر ببرج الفنار، قال مارمول:

" إنّ مدينة الجزائر في عهد سليم كانت تمول الحصن، لا تتصور بأي حال من الأحوال أن الجنود الاسبانيين كانوا قابعين داخل هذا الحصن لا يبرحونه والمدينة هي الأقرب ما يمكن منهم فنزول الجنود إلى المدينة وابتزازهم لبعض الأشياء كان يشكل إهانة لكل السكان ..."[4].

تمكنت الحملتين البرية والبحرية من قهر الأعداء فيها، وبويع عروج أميرا على المدينة من طرف سكانها، وذلك ما ضايق "سالم تومي"[5]، فراح يحيك الخطط ليبعده عن الإمارة لكن تفطن عروج قاده إلى القبر بعد اغتيال غادر يقال في الحمام يوم الجمعة ويقال في

قصره "قصر الجنينة". وكان عروج قد باغت "كارا حسن" التركي من حصن شرشال حتى لا يكون منافسا له.

لم يشفع لعروج بسالته ومساعدته لأهل المدينة وكبار تجارها وعقالها، لأنّ هؤلاء ثارت ثائرتهم من جراء ما يرونه من غرابة من المجموعة الحربية التي يترأسها عروج والتي لم تكن جنودا بل جماعات من الأقوياء كان يضمهم إلى حملاته فأصبحوا من رجالاته، أهل الجزائر لم تعجبهم تصرفاتهم وخوفوهم على بضائعهم وعلى أعراضهم جعلهم يخططون لطرد عروج وفشل المسّلحون الثائرون، وفي وقت صلاة الجمعة حاصر رجال عروج المسجد، وأمسكوا بالمسّلحين وقطعوا رؤوسهم و رموها في الشوارع.

وقلق أصحاب السلطة استمر خوفا على مكانتهم فكان دور "حميد العيد" ملك مدينة تنس، والتقيا الجيشان في سهل مدينة شلف واحتل عروج تنس في جوان 1517م.

واستنجد أهل **تلمسان** بعروج لما قام أبو حمو الثالث بالاستيلاء على العرش بالقوة استطاع عروج التغلب عليه و ارجاع أبا زيان العرش، لكن هذا الأخير تآمر عليه محاولا طرده من تلمسان فما كانت نهايته إلاّ القتل من طرف عروج. أما أبو حمو الثالث فقد راح يتحالف مع الاسبان فشنوا حملة كانت القاضية على عروج، قتل وهو يقاتل ببسالة وبيد واحدة لأنّ الأخرى قطعت لما استعصى علاجها، وفصل رأسه عن جسده وطيف به اسبانيا وعديد من مناطق أوروبا، استشهد وهو يجاهد من أجل إخراج أعداء الإسلام من الجزائر المسلمة وعمره يناهز الأربعين عاما.

وبعد استشهاد عروج وصد الحملة الاسبانية التي استهدفت مدينة الجزائر، استطاع خير الدين أن يقنع أعيان الجزائر بأهمية الانضمام إلى الدولة العثمانية حتى تمدها بيد العون في

العدة والعتاد والدعم المعنوي، بعد ما لمس قلة العتاد وكثرة المتآمرين عليه من الحفصيين وبعض أمراء الزيانيين.

والإحساس بالخوف وضرورة التحالف والتشابه العقائدي كما ذكرنا في مقدمة الدراسة جعل الأعيان يوافقون على عملية الانضمام إلى السلطنة العثمانية وبويع خير الدين بارباروس حاكما[6].

II ـ الرقابة والضبط في المجال السياسي:

لقد عرف الحكم التركي في الجزائر وإيالات المغرب العربي عامة مراحل عديدة اختلفت في بعض طرق تسيير شؤون البلاد، ولعلّ كثرة التغييرات السياسية والإدارية التي عرفتها المنطقة لدلالة قاطعة على أن الأوضاع السياسية لم تكن مستقرة، وفي حالة مستمرة من الاضطراب، وكان على السلطان العثماني ومستشاريه أن يجدوا حلولا لتنظيم البلاد وجعلها خاضعة فعليّا للباب العالي، لذلك كانوا يضعون على رأسها حاكما اختلفت تسميته من فترة لأخرى. فقد مرّت الجزائر في نظام حكمها بعهود أربعة في مجال الضبط السياسي هي :

1. عهد الباي لربايات: (1518 ـ 1587م)

تبدأ الفترة منذ أن اسند السلطان سليم الأول إلى خير الدين بارباروس أمر حكم الجزائر مانحا له لقب الباي لرباي أي أمير الأمراء، وتداول على حكمها في هذا العهد تسعة عشر بايلري بايا.

عين خير الدين حاكما واختار مدينة الجزائر مركزا له، وعين أحمد بن القاضي الغبريني ـ ينحدر من عائلة ابي العباس الغبريني عالم من علماء الشريعة والفقه ـ سلطانا على جبل كوكو(على مقربة من نات ايراتن بمنطقة القبائل) في الجهة الشرقية من الجزائر، واهتموا الحكام في هذه الحقبة بمطاردة الاحتلال الإسباني الذي لم ييأس من المحاولات رغم الهزائم النكراء التي ألحقت بأساطيله.

ولم يسلم هذا العهد من **الدسائس** لأغراض شخصية محصورة في الوصول إلى السلطة والاستحواذ عليها، لما ثار أحمد ابن القاضي على خير الدين بعدما استميل من طرف الأعداء ولم يتمكن خير الدين من العودة إلى المدينة إلاّ بعد ستة سنوات قضاهم في مدينة جيجل شرق الجزائر. وظلم ابن القاضي لأهل المدينة هو الدافع الذي جعلهم يستنجدون بخير الدين، فاستعاد سلطانه على المدينة مجددا عام 1527م، وقضى على برج الفنار في ماي 1529م هدمه وردم البحر بين البرج والساحل مكونا رصيفا يشكل ميناء الجزائر الحالي. وانتقم الإسبان بعد تهديم حصنهم وشنوا حملة على مدينة شرشال الساحلية وقتلوا أهلها ولكن خير الدين الملقب بأمير البحار همّ لنجدتهم وطرد الإسبان منها.

ولبسالة خير الدين باربروس ووفاءه للإمبراطورية العثمانية عين وزير البحرية العثمانية عام 1535م وراح إلى الادارة المركزية، واستخلف مكانه "حسن آغا".

وختم التفوق العسكري تحرير مدينة بجاية عام 1555م على يد الباي لرباي "صالح رايس"، الذي استطاع أن يحقق الوحدة و يمدّ نفوذ السلطة التركية في الجزائر لاسيما في الجنوب الجزائري[7].

وبدأ صيت الجزائر يعلو خارجيا لمشاركتها في معارك وحملات كبرى وبعد طردهم للإسبان من تونس أصبح باي لربايات الجزائر هم من يعينون باشوات تونس وطرابلس عن الدولة العثمانية.

معظم الباي لربايات كانوا رياس بحر، عملوا على مطاردة الاسبان والقراصنة المتربصين بالمسلمين المطرودين من الأندلس، وقد استطاعوا توحيد إقليم الجزائر جغرافيا وسياسيا.

لم يكن للحكام إلاّ الاسبان أعداء، بل أعداء الداخل من جراء التطاحن حول السلطة والنفوذ من جهة، وأعداء من الخارج كالدولة الحفصية بتونس والدولة السعدية في المغرب التي شنت حصارا على تلمسان لتضمها إلى مدينة مراكش، لكن استطاع حسن باشا استرجاعها.

ويمكن إضافة نوع آخر من الأعداء للأعداء المذكورين وهم **العبيد**، لم يخلو بيت جزائري من عبد أو أكثر يخدمه، وكانت تجارة البشر أكثر انتشارا في مدينة الجزائر جلهم من أسرى الحرب من المسيح، لا يتلقوا إلاّ قوتا واحدا في اليوم، ويعيشون في مذلة إلاّ اللذين أسعفهم الحظ في أسياد ميسورين وغير أشداء. والخوف منهم اذا اجتمعوا يوما وقرروا العصيان والتمرد.

في هذا العهد كان للجزائر أسطول بحري ضخم وقوي، يطلب منه تخليص السفن الأوروبية من القراصنة وتدفع الاتاوات مقابل ذلك، فكانت السلطنة العثمانية تستفيد من تلك الإتاوات كثيرا، ولذلك لا يمكن الاستغناء عن الجزائر التي تذر خيرا كبيرا. فكان اختيار الحاكم من الإدارة المركزية والرقابة من خلاله وأعينه المنتشرة في كل مكان لاسيما

في الجيش، إذ لم يكن ذوي الأصول الجزائرية يسمح لهم بالانتماء إلى الجيش ولما سمح لبعضهم "حسن باشا" دبرت ضده مؤامرات أنهت حكمه في الجزائر عام 1568 م.

كان هذا العهد اهتمام الحكام فيه بصد الاعداء الاسبان، والتحالف مع العثمانيين وعدم الخروج عنهم والولاء للسلطان.

عهد الباشاوات 1587 إلى 1659 م:

تخوّف الدولة العلّية من انفصال الجزائر عنها من استبداد الحاكم وتشبته بالسلطة حتى وإن كان من أصل تركي، فلذلك وفي عهد الباشوات حددت السلطة بثلاث سنوات للحكم، وبهذا الشكل تعد من السبّاقات إلى تحديد سنوات الحكم حتى لا يزيد التجبر والاستبداد بالسلطة. وقد أصدر السلطان "مراد الثاني" فارمان بإلغاء نظام الباي لربايات واستبداله بنظام الباشوات. يدار الحكم بمساعدة اللجنة الاستشارية المؤلفة من: وكيل الخرج، الخزناجي، خوج الخيل والآغا.

وأول باشا عين طبقا لهذا التنظيم الجديد هو "دالي أحمد باشا" (1587-1589م) وتداول على هذا المنصب أربعة وثلاثون حاكما منهم من شغل المنصب لمرتين متتاليتين مثل "حسين الشيخ"(1613 -1616 م)، وكان آخره الباشوات في الجزائر "إبراهيم باشا" (1656 - 1659 م).

إلاّ أن هذا التحديد الزمني لم يكن في صالح البلاد وعبادها لأن كل حاكم يعمل على إثراء نفسه قبل رحيله دون الاهتمام بحال البلاد وأهلها بل إغراقهم في الضرائب ومتاهات الإفلاس.

في عهد الباشوات زادت الصراعات على السلطة فقد عانوا من **سلطة الأوجاق**[8] أو **مجلس الديوان** وتحكمه ومقاومته لنفوذ السلطان العثماني، وقد اشتعلت نيران ثورة 1633م تحت إمارة **الكراغلة**[9] (من أب تركي وأم جزائرية كانت فترة تميزت بزواج الجنود الانكشاريين بالنساء المحلّيات أي الجزائريات لاسيما عام 1596م)، لما عجز الولاة عن دفع مرتبات الجنود انتهى الأمر بسيطرة الرايس"علي بتشيني"[10] على السلطة. ولم تكن تلك الثورة الوحيدة بل شبت نيران ثورة أخرى لما أخلف السلطان التركي وعده بتعويض خسائر الأسطول الجزائري الذي استدعاه شخصيا للحرب في مياه البحر الأدرياتيكي، هزّت الثورة الجزائر

والباب العالي معا، واستطاع الجيش الانكشاري أن ينقض على السلطة حتى الجزائريين ناصروه أثناء صراعه مع الباشاوات اللذين انصرفوا عن الأهالي، وانتهى بذلك عهد الباشوات.

كان الجيش الانكشاري أداة مجد السلطة العثمانية وبقاءها على امتداد قرون من الزمن فلا يعرف الجندي الانكشاري أبا إلاّ السلطان العثماني ولا حرفة إلاّ الجهاد، وفي نفس الوقت كان هو قائد كثير من الانقلابات مبقي على داي وباي وآغا وطارد لآخر بالعزل أم القتل أم الانقلاب.

عهد الأغوات (1659.1671م)

مثلت هذه الفترة القصيرة غياب السيادة العثمانية الفعلّية، لما أصبح اليولياش قائد من قادة الجيش البري يخلع الباشا ويعوضه بقائد من فئته، وذلك ما هو إلاّ انقلاب على الباشا المعين من طرف السلطان العثماني[11]. وبعدها أصبح الديوان المتألف من كبار الضباط الانكشارية هو الذي يقوم بانتخاب "الآغا" المنتدب للحكم بعدما كان السلطان العثماني هو صاحب التعيين الأول والأخير. حددت السلطة فيه لمدة شهرين فقط لعلها في تاريخ النظم السياسية وتسيير دفة الحكم لم تكن لها سابقة، عمّت أجواء الاضطراب والفوضى في هذا العهد لعدم وجود الاستقرار وعدم رغبة الآغا التخلي على السلطة لآخر، نسجت خيوط المؤامرات واشتدت الخصومات، وكثرت الإغتيالات الغادرة، وقامت التكتلات داخل القوة العسكرية "الانكشارية" مما سمح بالتكالب الأوروبي على الجزائر، مما جعل الجزائريين والسلطان العثماني يؤيدون قادة القوى البحرية "الرّياس" أثناء صراعهم مع الآغوات، واستياء السلطان العثماني من قطع الأغوات لكل صلة بالاستانة.

وكانت هي القطرة التي أفاضت الكأس لما انتفض الأهالي وثاروا فكانت نهاية حكم الآغاوات، آخر آغا "الآغا علي" الذي دام عهده عدة سنوات قتل أثناء هذه الثورة من طرف رياس البحر، ولم يقبل أي أحد أن يصبح آغا البلاد، فاجتمع مجلس الديوان وجاء بنظام جديد. ولقد تداول على حكم الآغاوات أربعة فقط وهم خليل و رمضان وشعبان وعلي آغا على التوالي.

عهد الدايات (1671 –1830 م):

تعني الداي في اللغة التركية الزعيم، وقد اتفق الديوان على جعله حاكما طيلة الحياة دون أن يورّث الحكم إلى ابنه من بعده، وعليه أن يتولى تنفيذ أوامر وتعلميات الديوان، وبهذا يصبح مجلس الديوان هو الحاكم الأعلى. تداول على الحكم خمسة وعشرين دايا طيلة هذا العهد.

لم تعد السلطة العثمانية هي صاحبة الأمر والنهي لاسيما في مسألة العلاقات الخارجية للجزائر، لكن نهاية الباشوات كانت نهاية ذلك التحكم بشطارة وقدرة مجلس الديوان على فرض آرائه، حتى أصبح سلطان آل عثمان يصدر فرمانات بتعين الداي الذي يختاره مجلس الديوان **ويضيف له باشا** يوجد في الحكم اسميا أو شرفيا كصورة للباب العالي، **ولم يطل وجود** هذا الأخير في عهد الدايات لأنه أصبح يشكل سلطة مزدوجة رغم أنه لا يتدخل في شؤون الحكم. فإنّ التزم الدايات الأوائل بتعميق الارتباط مع الدولة العثمانية فإنّ المتأخرين منهم تخلوا عن هذه السياسية ولم يبق للسلطان غير السلطة الإسمية.

إذ أصبحت الجزائر في ظل هذا العهد مستقلة تبرم الاتفاقيات مع الدول الأجنبية وتستقبل القناصلة ويعلن الداي الحرب دون رجوع إلى موافقة السلطان العثماني.

كما تميز العهد باستمراره في الزمن، واندماج الجيش الانكشاري بطائفة رياس البحر حيث اختفى الصراع بينهما. كما تخلى الدايات عن الجهاد البحري، واكتفوا بحماية السفن الغربية فقط. لقد كان القرن الثامن عشر متميز باستقلالية الجزائر عن المركز العثماني، كرفض القوى المحلية الباشا المبعوث من طرف السلطان العثماني عام 1710م.

لقد كانت تبرم المعاهدات مع الدول باسم أيالة الجزائر، تحت اسم جمهورية الجزائر كشفت عن ذلك وثائق لمراسلات فرنسية تثبت أن فرنسا كانت تسميها جمهورية، وهناك من سماها بمملكة الجزائر.

بل كانت الجزائر جاعلة تحت يدها تونس، والدليل لما أصبحت تونس لا ترغب في أن تكون تابعة للجزائر راح الباي فيها "حسين بن علي" لقطع دفع الضرائب السنوية إلى داي الجزائر، لكن بعد التشديد عليه من الجزائر اعترف بتبعيته للجزائر ودفع الضرائب، ولما اشتد الخلاف بين باي تونس وباي قسنطينة زحفت قوات داي الجزائر على رأسها "رايس حميدو" فقام بالسيطرة على بعض المدن التونسية واعتقال قائد البحرية "محمد البخاري" وأرغمت تونس على دفع مقادير من الزيت سنويا لإنارة المساجد والزوايا في الجزائر.

إنّ الجزائر لم تقع تحت سيطرة الأتراك كبقية الولايات التركية فمختلف المحاولات لرقابتها في إطار السيطرة عليها كانت فاشلة، ولم تتمكن من ضبطها، وقد وصف شاعر الثورة الجزائرية "مفدي زكرياء" حال تلك العهود كما يلي:

وآزرنا الترك حتى انتصرنا *** ولن يخفر *الترك* ماضي العهود.
وقمنا نسوس البلاد بعدل *** ونسدي الجميل، ونرعى الحدود.
ولم نكن *للترك* بالتابعين *** و إن عززوا سعينا بالجهود
ونحن أناس نعد الجميل *** ونرعى ذمام الصديق الودود[12].

رغم الاستقلالية النسبية إلاّ أن آل عثمان حاولوا دائما التدخل في شؤون الدولة لأجل استعادة نفوذها السابق في عهد الباي لربايات.

II ـ الرقابة والضبط الإداري في العهد العثماني:

اتساع النطاق الجغرافي للجزائر لاسيما في الصحراء التي عمد فيها الباي لرباي "صالح رايس" كان لزاما على الباي لرباي "حسن باشا" ابن خير الدين بارباروس أن ينظم الولاية تنظيما إداريا مميزا حتى يتسنى له فرض سلطانه ومراقبة المناطق وأهلها، فما الضبط إلاّ مجموعة من الإجراءات والأوامر والقرارات التي تتخذها السلطة المختصة بالضبط من أجل المحافظة على النظام العام في المجتمع من جهة، ولتسهيل مراقبة الأهالي من جهة ثانية. وزاد الإهتمام بالتقسيم الإداري لجعله أكثر وضوحا في عهد الدايات.

قسمت الجزائر إلى أربعة عملات أو بايليكات هي:

1ـ بايلك الجزائر مركزه مدينة الجزائر (سميت بدار السلطان)، يخضع لنفوذ الوالي مباشرة

2ـ بايلك الشرق مركزه مدينة قسنطينة، وهي أكبر المقاطعات، عليه نائب يحمل لقب باي الشرق.

3ـ بايلك التّيطري مركزه مدينة المدية، يحكمه نائب والي يلقب بباي التيطري.

4ـ بايلك الغرب مركزه مازونة ثم معسكر ثم وهران بعد جلاء الاسبان عنها. يحكمه نائب الوالي بلقب باي الغرب ويساعده موظفين[13].

بقي التقسيم ذاته إلى نهاية العهد التركي في الجزائر.

كانت تسيير دفة الحكم بواسطة أجهزة عرفت طيلة الحكم العثماني في الجزائر وهي التي أرست معالم تنظيما سياسيا وإداريا فيها، وهي كالآتي:

1ـ الحاكم العام الذي اختلف لقبه باختلاف فترات الحكم(الباشا، الآغا،الداي)

2ـ المجلس الاستشاري الخاص أو الشورى من أهم أعضائه نذكر:

أـ وكيل الخرج؛ المهتم بشؤون البحرية

ب ـ خوجة الخيل؛ يتصرف في املاك الدولة ويتوسط بين القبائل والحكومة

ج ـ الخزناجي أو الخزن دار؛ يهتم بأموال الخزينة مداخيلها ومخارجها.

د ـ الآغا، يتحكم في قوات البحرية، ويقوم بمهام باي المدينة، لا يمكنه البقاء في منصبه سوى شهرين[14].

هـ ـ بيت المالجي؛ تسجيل العقود والمواريث

3ـ مجلس الديوان العمومي من أعضائه نذكر؛

أ ـ القائم مقام او الخليفة وهو نائب الوالي

ب ـالدفتر دار، يهتم بديوان الانشاء وكتابة الدولة

ج ـ الباشا سيار ، يهتم بالبريد

د ـ القبطان رايس امارة البحر

هـ . الترجمان

د . بيت المالجي

و . شاوش الكرسي

ح . الكاهية، لأمن حفظ مدينة الجزائر، وقد كان للجيش نظاما هرميا فمن اليلداش إلى رتبة وكيل الحرج إلى الأودباشي وصولا إلى الكاهية، يتصدرهم القائد الأعلى للإنكشارية.

وكان كل بايلك يعتمد على تنظيم إداري داخله موظفين كبار يستعين بهم باي البايلك كالخليفة والقايد دار، والآغا وباش سراج وباش حامبه، باش موكحلي، والباش كاتب والباش سيار والباش سايس.
بالإضافة إلى هذه الأجهزة الإدارية والسياسية فقد قامت هيئات مدنية وعشائرية محلّية لكل منهما قائد أو شيخ ينظم أمور قبيلته أو منطقته النائية وفق الأعراف والتقاليد السائدة، حيث يرأس المنطقة شيخ البلد كما كان الحال عليه قبل العهد العثماني.

لكن ما تجب الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن التنظيم الإداري كان يعكس الترتيب والوضع الاجتماعي، فالمناصب العليا ذات الدخل الكبير كانت من نصيب الأتراك وحدهم، والمناصب ذات الدخل المتوسط كانت من نصيب الكراغلة، وذات الدخل الضئيل من نصيب الحضر(أهل المدن من الجزائريين)، والأعمال الشاقة وعديمة الأهمية من نصيب البرانية أي **الريفيون** إلى جانب العبيد من دول أجنبية[15].

والكرغلي لم يكن مسموح له الوصول إلى مناصب إدارية عليا كالخزناجي، لكن تمردهم على النظام عام 1629 و1633م تمرد ثاني استطاعوا الوصول إلى وظائف سامية على مستوى الإدارة المحلية وعلى مستوى دار السلطان ذاتها[16].

لقد تمكنوا من تولي منصب بيت المال والخزناجي كتولي "ابراهيم بن رمضان التركي" المنصب عام 1731م[17].

III الرقابة والضبط المالي العثماني في الجزائر:

امتازت الجزائر في الحقبة الأولى في ارتباطها بآل عثمان بغنى مالي يرجع إلى تنوع المحاصيل الزراعية والحيوانية وإلى التنوع في الموارد المالية التي تزود بها الخزينة من خلال أموال الزكاة على الماشية والحبوب والغرامات المالية وخمس غنائم البحر التي يغنمها الرياس، ومن أموال الجزية المفروضة على السفن البحرية التي تطلب المساعدة والحماية في مرورها بسلام على البحر الأبيض المتوسط، وهدايا القناصل، والأوقاف[18]، ناهيك عن الاتوات التي كانت تدفعها تونس والمغرب للجزائر سنويا رغم محاولاتها المستميتة في الانفصال والاستقلال عن تحكم الجزائر فيهما، وتقتطع من كل الأموال المذكورة نسبا تذهب سنويا إلى الإدارة المركزية لتمويل الخزينة الكبرى للإمبراطورية العثمانية ناهيك عن الهدايا المتنوعة للسلاطين العثمانيين.

إنّ الضبط المالي هو اقتطاع نسبة معينة سنويا من كل ما ذكر أعلاه لصالح الإدارة المركزية ولتسيير شؤون الادارة المحلية، وكانت الرقابة مفروضة من الإدارة المحلّية حسب الوظائف التي ذكرت في الجانب الإداري أعلاه.

وأنواع الضرائب متنوعة منها الزكاة، العشور، الغرامة، اللّزمة، الضيفة، المعونة، الإتاوة.

وإرهاق الجزائريين بالضرائب خاصة وأن طريقة جمعهم لم تقم على العدالة، ونتيجة التعسف في جمع الضرائب لاسيما أوقات المحن والكوارث الطبيعية كالزلازل والجفاف والجراد...، جعل طبقة الفلاحين وملاك الأراضي يتمردون ويعلنون العصيان كما حدث في منطقة القبائل بالضبط في منطقة فليسة عام 1767م، دام عصيانهم قرابة سبعة سنوات، وقبله عصيان سكان منطقة البليدة والحضنة ويسر والنمامشة بمنطقة الأوراس[19] ، فكانت النتيجة قتل وهروب عديد من الأتراك من أرض الجزائر.

في عصر الدايات زاد تدخل الجيش الانكشاري وسطوته على مال الخزينة فعمل الداي "علي خوجة" على فصل بين القضائين السياسي والاقتصادي عام 1817م بنقل المركز السياسي والإداري بما في ذلك دار السلطان إلى القصبة لدواعي أمنية للتخلص من سيطرة الجيش الانكشاري وسطوتع على أموال الخزينة[20].

إنّ السياسة المالية في الجزائر في بداية العهد التركي لم يكن تدخل الأتراك والحكام مباشرا فيها، بل كان عن طريق مشايخ الدين اللذين يستجاب لهم لجمع الزكاة دون تدخل الضبط القانوني والاداري، خاصة وأن العهود الأولى كانت الجزائر تملك دخلا قويا

من خلال غنائم الحروب والاتاوات التي تدفعها السفن ومن خلال عمليات القرصنة المتكررة.

لكن بعد توقف علميات القرصنة في القرن الثامن عشر فإنّ الحكام في عهد الباشاوات تدخلوا بطرق مباشرة لفرض وجمع الضرائب من السكان فأهلكوا كاهلهم.

إلاّ أن بايلك الشرق وفي عهد آخر داياتها أحمد باي الكرغلي الأصل فقد استعمل نظام العشور لنظامه الجبائي ويضيف عليها حسب الحال نظام الحكر، ولم تكن القبائل كلها تلتزم بدفع الضرائب وقد تندلع صدامات قوية لأجل ذلك[21].

ولتميز فترة حكمه بالجدية والعدالة جاء في صحيفة البيان التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الصادرة بتاريخ 17 أكتوبر 1937م مايلي:

> **"إنّ إدارة الحاج أحمد باي قد ارتكزت على أساس العمل الخيري وحسن الاعتبار والسلطة وكذا شرف الإيمان، فكانت الرّعية تحطى في ظل إدارته بالعيش والطمأنينة...، بل لم تكن تتعرض أثناء حكم هذا الباي إلى حرمان أو بؤس أوخذلان أو احتقار"**[22].

لذلك أقر سكان مدينة قسنطينة بقاء الباي أحمد على بايلكهم حتى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وإنّ كان منذ بدايات سنوات الارتباط العثماني الضرائب تجمع من السكان اللذين قسمهم الحكام إلى ثلاثة مجموعات هي؛

1. مجموعة المخزن: تتعاون مع الحكام في جمع الضرائب والمحافظة على الأمن، وهي معفية من دفع الضرائب.

2. قبائل الدائرة: تلتزم بتمويل الجيش بالرجال والأموال عند الحاجة، وتدفع الضرائب بصفة غير منتظمة.

3. قبائل الرّعية: لا تتمتع بالإمتيازات، تدفع الضرائب بانتظام وتسلّط عليهم العقوبات في حالة الامتناع والتقاعص عن الدفع.

أما سكان مدينة الجزائر المسماة بدار السلطان فقد قسم الحكام سكانها إلى أعراق جزائرية، وأندلسية ويهودية...، وأخرى مهنية وتختلف قيمة الضرائب بقيمة الكسب والربح.

الرقابة العسكرية :

منذ الدخول العثماني والانزال الانكشاري لمساعدة الجزائر في صد الاعتداءات الإسبانية الصليبية، كان لا يمكن لباش داي الجزائر تنظيم عمليات التجنيد دون الحصول على تسريح من الباب العالي وموافقته. لقد مثلت الإيالة الجزائرية جمهورية عسكرية عثمانية هامة في الشمال الإفريقي.

وكان الجيش البري يخضع كالأسطول البحري إلى نظام هرمي فأعلى رتبة فيه الآغا وأدناها اليلداش، تبعا لنظام الأقدمية.

كان الجيش الانكشاري عماد الدولة العثمانية وركيزتها في الفتوحات ثم أداة حكمها في ولاياتها، أصبح للجزائر جيش انكشاري خاص بها عرف بأوجاق الجزائر. كانت عملية تجنيد الانكشاريين في بداية الحقبة العثمانية في الجزائر تقوم على نفقة السلطان العثماني، لكن الجزائر أصبحت تتحمل أعباء مرتباتهم وحدها من خزينتها والتي كلفها أموالا كثيرة.

أما عن أبناء الإنكشاريين الكراغلة من أب تركي وأم جزائرية فهم أيضا يفضلون العمل في الجيش والانتساب إليه، يتقاضون أجورهم كأجور الإنكشارية لكن لا يرقون لمناصب عليا في الجيش بسبب اختلاط دمهم التركي بالجزائري والخوف من عدم ولاءهم الكلي إلى الباب العالي.

تحسّن وضع الكراغلة في الجيش تحسنا كبيرا خلال القرن الثامن عشر، لقد وصلوا لأعلى المراتب العسكرية؛ أي بنسبة قرابة 50 بالمائة، و وصلوا إلى رتبة وكيل الحرج مثل "محمد بن حسين بن علي أغا"[23]، ووصل 14 كرغلي إلى رتبة الآغا ما بين 1699 و1798 م[24].

كان الضبط العسكري داخل الجيش الانكشاري في ترتيب وتصنيف الرتب، وفي ضبط الأمن الداخلي ومراقبة التصرفات وملاحقة المخالفين، والدفاع وصد الأعداء من الخارج، لعل هذه الأخيرة التي كانت الأهم بعد خشية السلطان العثماني من الإنقلابات وبالتالي انفصال إيالة الجزائر الثام عن الإمبراطورية العثمانية، فإنّ الهاجس الأكبر انفصال تونس والمغرب وطرابلس عن الجزائر التي كانت تعمل عمل السلطنة العثمانية في الضبط

والرقابة عليها، فلذلك كانت تسخر مخابراتها لكشف المؤمرات التي تنسج بغرض الانفصال، أين وصل التحالف مع الأعداء الصليبيين لما تحالف المغرب مع الإسبان لأجل طرد العثمانيين من الجزائر وبالتالي من المغرب. ولما أرسل "صالح رايس" للسلطان العثماني عن المؤامرة أمره بالردّ الحاسم[25].

الخاتـمة :

كان دخول العثمانيين الجزائر استجابة لاستنجاد السكان بهم، عكس بقية الأقطار العربية التي ارتبط الوجود العثماني فيها بصراع مسلح بين العثمانيين و حكام المنطقة العربية، كالصفويين في العراق والماليك في مصر والشام، فكان الحكم فيها مباشرا بعد دخولها، اما الجزائر فقد كان حكما غير مباشرا، تحدد فيه تدخل الدولة العثمانية بالموافقة على تعين الوالي بعد اختياره من مجلس الديوان بالجزائر، وفرضت على الخزينة الجزائرية الضرائب والإقرار بالولاء للدولة العلّية، والدعوة للسلطان العثمانيمن خلال منابر المساجد بالخير باعتباره خليفة المسلمين.

إنّ استقلالية الجزائر خلال العهد العثماني كانت مظاهرها واضحة من خلال تلك المعاهدات والاتفاقيات التي تبرمها مع الدول الأوروبية حتى تلك غير الصديقة للإمبراطورية العثمانية، ما يظهر تجاهل الدول الأوروبية للوجود التركي في الجزائر، وكانت الجزائر تستقبل البعثات الدبلوماسية، و للجزائر أختاما ونقودا باسمها منذ عهد خير الدين بارباروس دليل من أدلة استقلاليتها. لكن هذا لا يعن أنها انفردت بتنظيم خاص بل

تطابق التنظيم العسكري في الجزائر التنظيم العسكري العثماني الى غاية 1830م، بداية الاحتلال الفرنسي.

كلما نقصت هيبة وقدرة الإمبراطورية العثمانية كلما تقلصت سلطتها في ولاياتها وتحديدا الجزائر، فيزداد الحكام استقلالا، وينفلتون من رقابة الإدارة المركزية لكنهم لا يدعون سلطانهم ينفلت ويواصلون الضبط الإداري والرقابة بغرض حفظ النظام والأمنين الداخلي والخارجي، وجمع الإتاوات والضرائب باستخدام القوة العسكرية مما أدى إلى الكثير من الهزات الاجتماعية والانتفاض في وجه السلطة.

تبقى عملية البحث العلمي في الإمبراطورية العثمانية مادة خامة للبحث التاريخي العلمي، إنها تعدّ من الدول المكذوب عليها في التاريخ، كتب تاريخها الأوروبيون، كتبوا ما أرادوا حسب ما يخدم ظروفهم وأغراضهم السياسية والإستعمارية، لذلك العودة إلى الارشيف التركي في تركيا وفي الولايات التي كانت تحكمها والبحث الدقيق فيه بكل موضوعية أضحى أمرا ضروريا حتى نعرف تاريخنا وحضارتنا ولا ندع غيرنا يكتب عنا.

الهوامش

[1]. أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر واسبانيا**،ط2، الجزائر: ش.و.ن .ت، 1972، ص 93.

2يحي بوعزيز ، **الموجز في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني: الجزائر الحديثة**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص08.

- Haedo.D,**Topographie et histoire générale d'Alger**, [3] Bouchène, : , Paris).Berbrugger A Dr. Monnereau et(traduction 1998, p33.

- كورين شوفاليه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر(1510.1541)**،(ترجمة: جمال حمادنة)، الجزائر: ديوان المطبوعات 4
الجامعية،2007 ، ص25،

[5]. ينتمي سالم بن تومي الى قبيلة الثعالبة فرع بن تومي ومن اللذين قرروا توقيع معاهدة استسلام مدينة الجزائر للاسبان، وهو من توجه الى بجاية ثم الى اسبانيا لاعلان ولائه للقائد الاسباني بدرو نافارو. وقد استطاع مرة سيدي عبد الرحمان التعالبي ان يوفق بينه وبين عروج.

[6] - محمد علي الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب والسقوط**،الجزء الأول، بيروت: مكتبة حسن العصرية،2010، ص 295.

. محمد علي الصلابي، **المرجع السابق الذكر**، ص331. [7]

[8]. الأوجاق هي طائفة عسكرية كانت تتولى الإشراف على البلاد والدفاع عنها ضد التحرشات الأجنبية وهي كلمة تركية تعني"النسق من الجند".

[9]. لم تنشا الكراغلة إلاّ في الجزائر بل في ليبيا وغيرها من ايالات الإمبراطورية العثمانية، كانوا محرومون من اعتلاء المناصب لأنهم في كل مشكل يقفن الى جانب اخوالهم وليس الى جانب الجيش الانكشاري. لكن بعد تمردها عديد من المرات اصبحت تعتلي مناصب عليا، وقد تضاعف عددهم في نهاية القرن 18م وبدايات القرن التاسع عشر ودلك راجع الى عدم وجود متطوعين يرغبون المغامرة في بلد بعيدة لا يعرفون ظروف العيش فيها، اضافة الى تراجع راتب الجندي الانكشاري وكثرة المخاطر في ظل تراجع الاسطول وكثرة الحروب.

[10]. تشيني رايس ذو سمعة جيدة في الجزائر وفي أوروبا لبطولاته وانتصاراته، وهو صاحب المسجد المعروف في ساحة الشهداء باسمه.

[11]. عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية الى غاية 1962**، بيروت: دار الغرب الإسلامي،1997،ص 59

[12]. مفدي زكرياء، **إلياذة الجزائر**، الجزء الأول

[13]. يحي بوعزيز، **المرجع السابق الذكر**، ص 65.

[14]. Shaw, T. **L'Algérie un siècle avant l'occupation Française au XVIIIeme siècle** , Paris Carthage, 1968, p 90.:

[15] عقيلة ضيف الله،" التنظيم السياسي . الإداري في الجزائر 1830 الى 1954م"،**المجلة الجزائرية للعلوم السياسية والاعلامية**،العدد الأول،شتاء 2001، ص 70.

[16] عائشة غطاس، **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر ١٧٠٠-١٨٣٠، مقاربة اجتماعية اقتصادية**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار، 2007، ص 26.

[17]–فارس كعوان،النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر فئة الكراغلة نموذجا 1629. 1830،**ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر**، جامعة قسنطينة، 20052004م، ص ص 86. 106.

[18]. يحي بوعزيز، **المرجع السابق الذكر**، ص ص 33.32.

[19]. **المرجع ذاته**، ص ص 50.48.

[20]. Raymond,A, « le centre d'Alger en 1830 »,**Revue de l'Occident musulman et de la mediterrané**, N°31,1981,p74

[21]. صالح فركوس، **الحاج أحمد باي 1826-1850م**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،2007، ص35.

[22]. **المرجع ذاته**، ص 32.

[23] . فهيمة عمريوي، الجيش الانكشاري بمدينة الجزائر خلال القرن ١٨م، دراسة اجتماعية . اقتصادية من خلال سجلات المحاكم الشرعية، **رسالة ماجستير في التاريخ الحديث**،جامعة الجزائر،٢٠٠٩، ص 54.

[24]. **المرجع ذاته**، الصفحة ذاتها.

[25]. محمد علي الصلابي،**المرجع السابق الذكر**، ص ص337، 338.